الوجود - بلا - وسيط

لمحة عن الوجود من وجهة نظر مستقلة

بقلم الجنيدي خليفه

(هل لنا ان نتكهن بان الانسان سوف ينتصر فعلا ضد العالم ؟ - مهما يكن فان انتصاره مشروط بنضاله ، ولئن يدمر فذلك خير من ان ينهزم) !!

١ - نظرة من الخارج

قد يكون من الحتمي في عرف الكتابة الكلاسيكية ان نبدأ اولاوقبل كل شيء بتعريف المداليل المكونة للعنوان .. والواقع اننا لن نكون كلاسيكيين لمجرد ان نفعل ذلك ، اذ ان الامر لا يخلو من منطقية ومن فائدة .. ما دام الفكر الواضح هو الضمان الاساسي لامكانية تفهم القاريء وتجاربه ، وما دام الوضوح دلالة قاطعة على شفافية الفكرة وصفائها .

غير ان المرء - ولا داعي للاسف - لا يعيش في عالم من البساطة بحيث ليس عليه غير « تصنيف موجوداته الى « اجناس » ، ولا هو كذلك متصف « بالعلم الكامل » الذي كان ينسبه له احيانا القدماء تحت ستار من التواضع الزائف ... وربما امكن لنا نذهب الى ابعد فنزعم انه كلما كان الموضوع في حاجة اشد الى التعريف كان على طبيعته اشد امتناعا دون التعريف .

والحق ان هذا هو ما شعرت به شخصيا وقد خطر ببالي ان احاول تقديم تعريف « جامع مانع » للفظة « الوجود » ... خطر ذلك ببالي فرحت اكد الذهن واحرق مئات السجائر .. فرايت انه ينزلق من فكري كلما فكرت فيه ، واني لا اقع منه على غير خطوط انزلاقه ، وان اقصى ما استطعت ان اصل اليه بصدده هو ما تراءى لي في هذه الخطوط مما يشبه معاني «الدوام» - «الزمان» - «الحرية» - « الفعل » و « الصيرورة » كانتقال بين الوجود والعدم .

ولماذا لا يكون الوجود كل هذه المعاني ما دامت هي قائمة حقا ؟ بل لماذا لايكون من عناصر الوجود حتى هذا الجهل نفسه ، هذا الذي يعبر عنه التساؤل والشك في تحديد مفهوم الوجود ؟ وبالتالي لماذا لايكون من مقتضيات تعريف الوجود ، لماذا لايكون من هذه المقتضيات نفسها ان يترك التعريف نفسه ناقصا ومبهما ؟! اجل ان الوجود هو انا ، وانا هو وجودي ، والنظرة الصبيانية وحدها هي التي قد ترى في الوجود معطفا يمكن خلعه والتفرج على مختلف انحائه كيف فصلت ، ومم نسجت ، وكيف خيطت ...

وهكذا ، فانه اذا كان على المفكر في « المواضيع الجزئية » ان يقدم عنها تعريفا محكما فيما هو يبسطها ، فان على صاحب المواضيع الميتافيزيكية او - للمقابلة مع ماتقدم - الكلية ، ان يطمع في اكثر من التلويح والتقريب والاشارة ، وغاية مايستطيعه - وليس باليسير - ان « يحيلنا » بكتابته ، مجرد احالة ، الى وجودنا « للتعرف » عليه بانفسنا ، لنتعقله في الوقت الذي نعيشه ، لنغوص في اعماقه في الوقت الذي « نترك » على « السطح » « بعض » هذه الاعماق ..

واذا لم تكن الغاية من اصل هذا البحث غير محاولة التلويح بما يستعصي عن التصريح ، فان هذا التلويح نفسه يظل مع ذلك في حاجة الى بعض التسهيل والمساعدة على التقرب من اداء وظيفته وتحقيق ذاته .

**

واحسب بعد هذا ان المسألة باتت منحصرة في هذه النقطة : ماهو « الوجود » الذي اقصد ؟ هل هو الوجود العام التجريدي ، أم هو الوجود الفردي الخاص ؟ « والوسيط » ماهو اولا ، وهل هناك - في مقابل ماهو بلا وسيط - وجود بوسيط ، في الواقع او في الاعتقاد ؟ ثانيا ، واخيرا أوكد تفهم لفظة وسيط طرفيه هما موضوع الوساطة ؟ فما هما هذان الطرفان ؟

الوجود الذي اقصد هو الوجود العيني المعاش بالفعل ، وجودي انا الذي اتحدث ، ووجود كل من يتحدث عنه ، وجود ، بالنسبة اليه هو .. بعبارة اخرى : اذا كان في عالم الذهن وجود عام هو عبارة عن مجموع المعاني التي يشترك فيها جميع الناس ، أو هو تجريد وجودات الافراد بحيث يكون مناقضا للعدم ، اقول فان الوجود الذي اقصد ليس نقيضه العدم بل الغياب .

ومن صفات هذا الوجود العيني : الاصالة والبكارة - الطرافة - اي ان السلوك او الفعل المستعار المقلدمنبوذ دونه، وان كل حركة من حركات انطلاقه الى جديد ومغامرة الى مجهول ، بل وعلو ستدل على ذاته !

ونستنتج من هذه الصفات - صفات اخرى - وكلا النوعين ملازم للاخر - هي انه حي ، وانه متحرك نشط ، وان نقطة ضعفه انما تتجه ابدا الى الزمان المستقبل والذي لايقبل ابدا ..

غير ان المرء عندما يكون بصدد الحديث عن هذاالمعنى من الوجود ليضطر غالبا الى الحديث عن المعنى الاخر منه ، الوجود المجرد ، واحيانا قد يجد نفسه مضطرا الى الحديث عن الكون تحت اسم الوجود ... وذلك لسبب جد مفهوم - او جد غامض ..! - هو ان هذا الوجود الفردي لايعاش منعزلا معلقا في العدم ، وانما هو على العكس معاش في وسط او مجال ، من الناس وغير الناس .

وقد يكفي هنا بصدد « الوسيط » ان يقال انه الملقى الذي يلتقي عنده الطرفان .

واما هذان الطرفان بالذات فاحدهما اذن هو الانسان

---

(١) غني عن البيان ان استعمالنا لضمير الفرد الذي سيتكرر مرارا لا يعني سوى الفرد المتكلم - اي فرد - في مثل حالة المتكلم هنا ، وليس هو خاصا بكاتب هذه السطور . اما وجه الاستعمال فلتسهيل التحليل ..

وثانيهما هو ماعدا الانسان من باقي الكائنات ..؟ هـذا بالنظر الى الانسان الكلي التجريدي ، فاما في الواقع العيني فالانسان ايضا للانسان ؟ اي ان الاطراف في مجموعهـا قصدته : الفرد المعني ، والاخر المقابل ، والعالم الذي هـو كل ماعدا الانسان .

وصراع الفرد مع هذه الاطراف هو الذي يفجـر ينابيع وجوده ، هو الذي يعيد اليه حضوره ويقظته وقد كان منهما في سبات .

ولكن لماذا كان هناك « سبات وجود » او وجـود « بالقوة » فقط اذا كان التوجد ـ ونستعمله مقابلة لذلك للوجود بالفعل ـ قائما على كونه داخل ذلك الوسـط « الأطراف » او المجال ؟ لماذا ذلك مادامت تلك الاطراف او ذلك الوسط قائم الذات ؟

الوجود ـ السبات ناتج عن تدخل وسيط بـين الانسان والعالم او بينه وبين الأخير او بينه وبينهما جميعا.

واما الوجود المتوجد فهو الذي « يطرد » معه الانسان الوسيط ، ويعيش وجها لوجه تجاه العالم والاخر .

واما حدة هذا الوجود وزخمه فناتجة من طبيعـة الموقف والمعطى الذى سيعطيه للانسان ، ذلك بـان تلـك الاطراف « تتفكك » او تتباعد بسقوط الوسيط ، بـل تظل فى تقابل مواجه وتصارع عنيف ، تظل ـ وهل لنـا من حيلة ـ في نفرة متجانسة كل التجانس وكل النفرة ، انها تظل فى وحشية اليفة وفى الفة وحشية ، انها بعبارة واحدة : تظل فى تناقض لاتناقض بعده ، وفي اجتمـاع لهذه الاضداد المتناقضة لااجتماع ولا تكامل بعده !!

وليست هذه الحالة « الغريبة » مجرد حالة منطقة يقف العقل دونها متبرما حصيرا ، بل انها ممتدة الـى جميع ابعاد الوجود ، فيحسها الفرد ويشعر بها ويعيشها بكل خلية من جسمه وبكل دفقة من روحه .

هذا المثير ، المرهق ، المنرفز ميتافيزيكيا ، هـو ما يضفي على ذاك التوجد وعلى التمزق الشامل العميـق الحاد .

ولكن ماهي نهاية ذلك وكيف يكون مصير هذا الكائن الشقي الذى قادته شجاعته او تهوره ، حكمته او حمقه .. الى ان يحطم هذه المجرة السحرية ويدفن بخورها ليشم بارود الوجود ، بلا واسطة ولا بخور ؟

فيما يلي محاولة للحديث عن ذلك بعد التمهيد بعرض « المناسبات » التي يتجلى فيها التمزق بكيفية سافـرة او من وراء قناع .

٢ ـ المهزلة ـ المأساة في الوجود الانساني

المعرفة والوجود :

قد لايكون هذا الموضوع طليعة المشاكل التي يواجهها الفيلسوف ، « غير ان المشكل الذي لابد ان يواجهه ، ذلك بان الفيلسوف ليصبح مجرد مفكر « جزئي » ان هو لم يعن ـ فيما يُعنى ـ باصل المعرفة وطبيعة المتعرف ـ الانسان ـ ولكن دون ان يكون المرء حتما فيلسوفا ، يمكنه ان يتساءل عما هي العلاقة بين المعرفة والوجود .

الفكر لايفكر الا اذا انطلق من ذاته ، الا اذا حطم من امامه مرآته ، اولا فانه يدور على نفسه ولا يتقدم عـن محور ، فلا يأتي بجديد ولا حتى بقديم .. انه فقط يتوتر.

على ان الفكر ما ان يشرع في عمله حتى تنفلت منه القابلية لنقد ذاته مباشرة ، في نفس لحظة العمل المقصودة فهو لا ينقد الا الذكرى ، وبين للذكرى والواقع ما بين التجربة المعاشة والتجربة الموصوفة !

واقل مايقال في هذه الحالة انها توقعنا في ريب تجاه المعرفة ، واننا اما ان نعيش التجربة فيختفي التفكير فيها ، وامـا العكس ، وذلك ما عناه « كيركجارد » فسي « كوجيطوة » : « كلما ازددت تفكيرا اقل وجودي » .

على اننا رغم كل ذلك تجدنا مدفوعين بقوة لاتقهر الى تقدير قيمة الفكر بالنسبة الى الوجود والى محاولة نقـد هذا الفكر .

بيد ان الجدير بالاهتمام لهو هذا السؤال : لماذا كانت فينا ، اصلا ، قابلية للتفكير في هذه المواضيع .. القابلية نفسها لماذا كانت ؟ هذا مع العلم بان نفس الدعوى القائلة بعشية تناول الفكر لبعض المواضيع انما تنطوي ، حتى في حالة صدقها ، على كذبها ! اي انها قضية مؤسسة علـى مباديء الفكر نفسه ، واذن فما هي الحدود بين صوابية التفكير وخطيئته ؟

هنا تتجلى المهزلة : لايمكننا مطلقا تقييم معارفنا من اساسها لانه لاوجود لقاعدة ارتكاز خارج الوجود يمكن للفكر ان يأخذ من فوقها «لقطة» له وهو يضطرب وجودا ونشاطا وانطلاقا ..؟ ولكننا بسبب هذا بالذات لانستطيع ان نقنع بعدم النقد والتقييم ..!

وهكذا ، ما ان نواجه موضوع المعرفة والوجود حتى نشعر باصبع مهينة متحدية ترفع بتلك الحركة الواحدة « المشنترة » (١) من تحت الذقن ، ومع هذا ..

ولو ان حضرة القاريء سمع بتحليل هذا التشبيه لعاد بنا التحليل الى طرفين متقابلين : فاعل الاهانة وموضوع الاهانة ، غير ان هذا لايحدث بين شخصين متقابلين كمـا يوحي به ، عادة ، التعبير بالاطراف ، انما فاعل الاهانـة هو نفسه موضوعها .

واستحالة تحديد المسؤولية « الاعتداء » هذه ، مع الحاجة الطبيعية الى ذلك ، هو مايصبغ المهزلة بطابـع المأساة نفسها ! فيالالتناقض ! ويالالتفرقة !

الجسم والنفس :

غير ان هذه المهزلة المأساة ليست مجرد حادثة عرضية تبدو وتزول تبعا لاهتمام الفكر او عدم اهتمامه ، وانما هي الانسان نفسه . صحيح ان كيفية تلقيها تختلف من شخص الى اخر تبعا لقيام الوسيط عنده او سقوطه ، فيختلف بالتالي لونها ونوع تأثيرها .. غير انها من حيث هي «قصة» ما تظل قائمة الذات محصلة الجوهر .

ذلك بان الانسان ليس هو هذه الكتلة المكونة ممـا لايحصى من خلايا تتفاعل مع بعضها كيمياويا « او لا ـ كيمياويا» ولا هو هذا الوازن كيت وكيت ، المتحرك هنا وهناك ، ولا هو بالذي هو بين ابعاد الطول والعرض والارتفاع وما تكون من اشكال وحجوم ..

لا ، ولا هو شعور بحت او حرية محض ، او مباديء ومثل وعادات خالصة صرف ، انه ليس قصيدة وليس لحنـا .

---

(١) « شنتر » هي اللفظة المعبرة تماما عن المعنى المقصود ، وهـو دفع الذقن بالاصبع دفعا الى فوق وسحب الاصبع مباشرة بحيـث ترتفع الذقن وتسقط ،وذلك بقصد الاهانة .

وهذا التصرف وهذه اللفظة ـ شنتر ـ مستعملة بشيوع في الجنوب الجزائري ، ويبدو ان اللفظة عربية لانها مشتقة من نتر والشين للمبالغة كشأنها في « شنغما » التي تأتي بعد كلمة « دغما » الواردة بدورها بعد كلمة « رغما » ، وذلك كله للمبالغة .

وبعبارة بسيطة : ليس الانسان روحا او نفسا وليس هو كذلك جسما او مادة .. مادامت الروح (١)من حقيقته ولكنها لاتساويه وما دام كذلك الجسد من ابعاده ولا يعدله.

انه اذن : الروح ـ الجسد ، الجسد ـ الروح ، هو هذه الالفة التى لا الفة بعدها الالفة بين الروح والجسد ،بين ابعد ضدين واشدهما تدافعا !.

غير اننا لو نظرنا الى كل من الجسد والروح على حدة ومستقله احدهما عن الاخر فتناسينا مؤقتا مابينهمامن الالفة والانسجام لوجدنا ان ابرز خاصية للجسم هي « المحسوسية » في حين ان خاصية الروح او النفس ،الاولى انما هى « الشعورية » ، اي ان الجسم حقيقة فضائية فمجال تحققه المكان ، وان الروح حقيقة لا فضائية فمجال تحققها الزمان او بعبارة اخرى : الدوام .

فاذا عدنا فتذكرنا ان الانسان هو الجسد ـ الروح.. اي الجسم والروح مع عملية التكامل بينهما ، امكننا انْنصفه ـ منتفعين بتعبير قديم ـ : بانه الجرم الذى لايشغل حيزا وانه الحيز الذى « حرمه » الزمان ، انه الممتد اللاممتد ، والشعور اللاشعور ، والواحدى التعددى .. انه بكلمة واحدة : التناقض الذى يسفر بالعقل ويقض الوجدان !وانه التحدى الذى يفعل التحدى ويتعرض له !!

وتعلن هذه الحقيقة عن نفسها بحدة في بعض المناسبات المعينة: مثل فراق الحبيب وموت القريب ...

(١) انما نستعمل الروح بالمعنى المقابل للمحسوسات « النفس » وليس بالمعنى الديني الشائع .

ظهر حديثاً كتاب

الجامع في التربية العامة

تأليف أوبير

ترجمة الدكتور عبدالله عبدالدائم

•

أعمق كتاب في فلسفة التربية وأصولها

•

يطلب من جميع المكتبات

حيث نقف مفرقين جراء وعينا لتلك الوحدة المتنافرة المنسجمة والتي تفككت اجزاء : فها هنا جسم بلا حراك ، وها هنا حضور لا جسم له

كيف امكن اولا لهذه المتناقضات ان تنسجم على تناقض وكيف امكن ثانيا ، وتلك الحالة ، ان تتفكك على انسجام ويغادر بعضها بعضا ؟ يبقى البعض ويذهب البعض ، كيف لايذهبان معا او يبقيان معا ؟!

انه فصل اخر في المهزلة المأساة للوجود البشري .

الانسان والعالم :

والانسان ليس مغلقا على نفسه ، وليس هو كائنايعيش دونما وسط ، بل انه يعيش في عالم يتبادل معه التاثير .

والصفة الشائعة للعالم هي انه ممتد ومتغير وقابل للتجزئية والتحول ... فلو انا التفتنا الى الانسان في جانبه الجسمي لوجدنا ان هذه الصفات هي نفسها صفاته. ومعنى ذلك ان المادة لتدخل في تكوين حقيقتي الانسانية الكلية المتكاملة ، واني بعبارة اخرى : عالم ـ انسان ، بحيث انه يمكن ـ للتوضيح ـ انْنتصور ان هناك موجودا واحدا متكونا من الانسان ومن العالم !

غير ان مثل هذه الصفات هي الى التجريد اقرب منها الى الخبرة الانسانية ، ذلك بانه مادام شأني مع العالم هو التشارك ، اي مادامت علاقتي معه من المتانة الى حد انه يدخل في حقيقة تكويني ، فلا بد ان تكون الصفة الجدبرة بالاعتبار انما هي بالدرجة الاولى تلك التي تستند على طبيعة هذه العلاقة باعتبارها وصلة للشدبيني وبينه.

« والعداوة » تعني توكيدا قاطعا للذاتية ، اي انها تدل على حدود حادة بين « المعتدي » « والمعتدى عليه »، والا لما امكن تصور اعتداء ما .

غير ان الاعتداء لايكتفي بتحطيم الذاتية المقابلة وحسب في سبيل تاكيد ذاتية فاعليه ، وانما ينزع الى ادماج هذه الذاتية فيه ، واذابتها كليا في ذاتيته هو ، وذلك باضفاء جميع مميزاته التي كانت تميزه ، عليها ، وبافناء مميزاتها هي .

ووقوع هذا الاعتداء ، من العالم ضد الانسان ليس بمثابة الحادثة الاحصائية وحسب ، وانما هو مبدأ الوجود بين الانسان والعالم ، مبدأ الوجود نفسه ، فانا في كل لحظة عرضة لهذا الاعتداء ، يكفي ان يطيش احد الكواكب القريبة من الارض عن مداره حتى تتحطم الارض ، يكفي ان ينزو اللهب المخزون في جوفها(١) يكفي انيحدث فيضان.

واخيرا فان هذا العمر المهدد يختتم بخاتمة لاتتغلب ابدا ـ وهي على الاقل لم تتخلف حتى الان ـ خاتمة تضع ذلك التهديد الدائم موضع التنفيذ القاطع الجازم الذي لايعرف اذا هو جاء تأجيلا ولا تمويها .

وهكذا افقد بالموت ذاتيتي وقد اصبحت جثة ، اصبحت مجرد كتلة ممتدة في المكان يعتريها التعفن فتحمل الوباء والطاعون الى اخيها الانسان ـ سابقا ـ ذلك الذي كانت من معسكره .

وبالجملة فان علاقتي بالعالم وان كانت في نطاق من

(١) ويكفي ان يكون لاخلاق قادة « المعسكرين » الشرقي والغربي ذلك النزوع الذي اشتد هذه الايام بمناسبة « ازمة » برلين ، ذلك النزوع الى تفجير قوى الطبيعة الرهيبة ضد الانسان ولفائدة الطبيعة نفسها ـ بالتحول اليها ـ يكفي ذلك حتى يصبح مكان تصنيفهم الحقيقي انما هو العالم نفسه ..

التجاور النشيط ، الاانها ليست علاقة « حسن جوار » ولا مهادنة .. انما هي علاقة اعتداء ، وتحطيم لا رحمة فيه ولا هوادة ... صحيح اني لااستطيع جازما انا صف اعتداء بالقصدية والنية ، غير ان ذلك لايعني اولا ولا يغير من حقيقة واقعي معه ، ثانيا .

واذن فان هذا العالم وان لم يكن عدوي ـ تبعا لعدم جزمي بالقصدية ـ بائم المعنى ، غير انه فاعل كارثتي العظمى .

هذا العدو او فاعل الكارثة هذا لاتربطني واياه علاقة الجوار وحسب بل هو ، رغم كل ماتقدم ، بعض كياني وحقيقتي !

*

ليس هذا فحسب بل ان اخص خاصية اتميز بها وانفرد بالاتصاف بها ، دون العالم ، ليغتصبها مني هذا العالم !

هذه الميزة هي الحرية ، وذلك الاختصار يتمثل في اني ما اكاد امارس حريتي هذه واخرجها من الشعور الى الفعل ، حتى افقدها ، اذ انها تتحول الى جمود ومادية وسكون وفوات ... ذلك بان الفعل ـ مظهرها ومصداقها ـ الذي احققه ، يعود غير قابل للنقض ، والزمان الذى سايره يصبح ماضيا غير قابل للعودة ، لقد اصبح هذا الفعل في قليل او كثير يسير حريتي ومستقبلي فانا لااتمرد الا في نطاقه . قد يكون هذا هو المفهوم الاصلي للحرية ، غير ان ذلك لايقنعني ابدا بالعدول عن الاسف الناتج عن ممارستي هذا الفعل او ذاك ، ولا بالكف عن الشعور باني محدود الامكانية في الوقت الذي ارغب ان اكون غير محدودها .

جمود الحرية هذا الى اي شيء ينتسب ؟

ان خصائصه هي نفس خصائص العالم .

واذا كان العالم يكون بعض حقيقتي ، بمعنى ذلك ان فاعل تجميد حريتي انما هو انا ، وان المتعرض لذلك ، والمصاب به انما هو ايضا انا !

فاي شيء افظع وابلغ هزلية ومأسوية من ان تنزع الذاتية الى تجريد نفسها من الذاتية ، ان تنزع الحرية الى الجبرية وان يحطم الانسان ببعض حقيقته ، ماهو قوام بعضها الاخر !

واذا كانت هذه التجزئة والتبعيض لاوجود لهما في غير عالم التحليل فان الامر سيان ولا يغير من حقيقة الواقع وكل ما هناك اننا نجدنا منصرفين الى تعبير تركيبي ، كأن نقول ان حقيقة الانسان هي الحرية ـ الجبر ، العداوة ـ الصداقة ، الوجود ـ العدم ، هي بعبارة اشمل : مجموع المتناقضات المرهقة للعقل الممزقة للوجدان .

الانسان والانسان :

وكما اني موجود تجاه العالم « المحض » فانا كذلك موجود تجاه الاخرين ، اي تجاه افراد تقوم بيني وبينهم نفس الاعتبارات او المعطيات التي للروح والجسد .

فالاخر بالنظر اليه هو كوحدة مستقلة تبدو في حدود جسمه وما يفترضه جسمه من سلوك فردي «مثل املاءات الحاجة البدنية » ـ يوجد بينه وبيني نوع من العدائية او بعض مسببات « الكارثة » مثل ماللعالم تماما ، وبعبارة اخرى : فطالما ان جسمه يخصه هو ، فهو المتصرف فيه حسبما اجهل ، واذن فهو بالنسبة الي ، متصف بتلك النشاطية اللامتعينة واللامتحددة ، فهو يعارضني حيناوغير مكترث لي حينا ، ومصادمي مجرد مصادمة في كثير من الاحيان .

لكن اذا كانت هذه الاعتبارات ناتجة عن حقيقة الانسان الجانبية ، اي عن حقيقته كجسم ، فان له ايضا الجانب الاخر الذي هو النفس ، وكل صفة من صفات هذه النفس تتعارض وايا من الصفات السالفة .

واذن فان الاخر من هذا الجانب انما يكون معي وحده لان الروح « او النفس » لا تعرف التعدد ، ويكون معي حالة تجانس لانها لاتعرف التنوع ، اجل الانسان بهذا الاعتبار لايتعارض ولا يصطدم ولا يستطيع الا يبالي باخيه الانسان ، هو لايتعارض لانه لاوجود في عالم الروح لذاتيتين تحاول كل منهما ان تحطم الاخرى وتؤكد بذلك نفسها ، وهو لايصطدم لان الاصطدام ـ فضلا عن ذلك ، انما ينتج عن الجبرية ، وهو لايستطيع الا يبالي لانه غير «مشغول » بامر خارجي .

وهكذا : شعور « بالعدائية » من جانب وشعور « بالولائية » من جانب اخر ... تصور بان اخي الانسان هو انا نفسي ، وشعور بانه ـ في معطياته الجسمية ـ نازع الى القضاء علي .. كل ذلك في نفس الوقت وفي نفس الحال وبنفس الحدة .

وبالجملة يمكن ان نعرف ، او بالاحرى ان نقلب ، ذلك المرهق المثير ، المهزلة المأساة ، بقولنا : انه صداقة لدودة ، ولدد حميم يعيشها الانسان منطقيا ونفسيا في جميع ابعاده : بينه وبين نفسه ، بينه وبين الاخرين ، وبينه وبين العالمين .

٣ ـ الوسيط ومستويات تجليه

المرهق بين اللطف والحدة :

تلك ضروب من المناسبات التي تتبدى بها المهزلة ـ المأساة راعيت في اختيارها ان تكون تمثيلا كافيا لباقي الضروب الاخرى التي لايبلغها تعداد ...

ومن المؤكد ان هذه المهزلة ـ المأساة تختلف عمقا ومذاقا بين فرد واخر ، وبين مجتمع واخر .. الامر الذي يقتضي من حيث التعبير ان تبدل نوعيتها كمهزلة ماساة بما هو اعم ، وليكن « القصة » ...

هي تختلف بحيث تكون عند فرد مجرد مأساة او مجرد مهزلة ، اولا تكون عنده غير شعور بالتوازن والاعتدال ... هذا في نفس الوقت الذي قد تبدو فيه لدى فرد اخر على العكس من كل ذلك او على المباينة منه مجرد المباينة ، او على حالة هي بين ذلك وسط .

وكذا الحال بالنسبة الى المجتمعات ، على ما سأشير من بعد . غير ان هناك ظروفا معينة يشترك جميع الناس في الشعور بطابع القصة المهزلي المأساتي بمناسبتها ، انها لمحة من البريق الخاطف الذي يكشف عن ناب العدو والكامن فينا .

هذه الظروف هي الموت والخيانة والجفاء ، موت العزيز والتعرض للخيانة من الصديق وللجفاء من الحبيب .

« الصادمات » :

وموت العزيز ليس كأي موت ، فهذا يعنيني مباشرة ويرغمني على عيشه ، بينما موت غير الاعزاء لايثير في ان هو اثار غير « معيشة فكرية . »

هناك نوعان من الموت ، احدهما وقع عبر التاريخ

والثاني واقع في بيئتنا الوجدانية ودائرة اهتمامناواضطرابنا اليومى ، فالولد يربطنا معه النظر والتعقل فهو حادث صالح للاستقراء والاستنتاج مثل سائر الحوادث التاريخيـــة الاخرى : موت الملك الفلاني يحيلنا على البحث في الظروف الناتجة عن موته .. في كيف يكون الذي يتولى بعده وفى كيف تكون الامور على يده ، وبالجملة فان الموت فى التاريخ لاينفرد باهمية عما يمكن ان يهمنا من سائر حوادثه ... فاما الموت الذي يقع في بيئتنا فله طعم اخر ، انه تجربـة نعيشها ونفتعل بها ولمعطياتها المباشرة فهو مثير لاعماقنا فكيف ذوقنا في الوجود الانساني ... بينما يظل النـوع الاول على مستوى تفكيرنا الكونى فقط وكانه لايهمنـا مباشرة ، بل وكأنه ليس من الموت فى شيء : لقد حـدث للناس غيرنا للاخرين عاشوا قبلنا وانقطعت بتقادم العهـد الاسباب بيننا وبينهم ، ومهما يكن صدق التاريخ فانه شيء اخر غير مايجرب ويعاش .

اما الموت الذي يحدث فى جوارنا فهو الشهادة التى تدين لامبالاتنا الوجدانية بحقيقة التاريخ ، الدليل الذى يدفع عقلي فيدمى اعماقي ويضجر سحنتها الذاتية ! (١)

ذلك بان مشاهدتى لهذه الجثة ترغمني على الجزم بانى انا الاخر صائر الى مثل ذلك « ولو انها نظرة خارجية» اذ لافرق يميزني من هذه الناحية عن الذي مات بحيث يمكن ان اعتقد انى لن اصبح على نفس المصير ، هذا من جهة ، ومن جهة اخرى ، فما دام الميت قد انفصلت روحه عـن جسده حسبما يبدو من الجثة ،اجل مادامت هذه الروح قـد انفصلت او فنيت .. فروحي انـا التى تكوّن بعض حقيقتى الان صائرة هي الاخرى الى نفس المصير ، واذن فان هذا التآلف بين جسمي وروحي ليس سوى مجـرد خداع وقتى لابرقى الى الواقع ولا يلبث حتى يزول ...

بالجملة ، فنظرا الى انى لاأتميز عن الاخر من حيـث اني جسم ـ روح ، فان موت هذا الاخر يكشفني مـن حيث واقعة الجثة التي لم يعد فيها اي مظهر روحي ـ على التناقض المتطرف بين روحي وبين جسمي .. ـ والا لماذا تذهب الروح تماما وتبقى الجثة ؟ غير اني مع ذلك اعيش الان حقيقة جسم ـ روحية ، بواقعة انني حي بعد .

هذا الضرب من عيش الموت هو مايصدع ذلك الاتزان الذي يمكن ان يكون سائدا عند بعض الافراد ، فيصبـح المرء واعيا ـ فكر ـ وجدانيا لذلك التناقض المتجمع فيه.

وليس بين الموت من جهة وبين الخيانة والجفاء مـن الجهة الاخرى فرق كبير ، فكل منهما متشابه فى المعطيات وغاية ماهناك من فرق ان مبدأ شكل التمزق في الموت انما هو الجسم ـ روح ، بينما هو في الخيانة والجفاء : الوحدة ـ تعدد ، الوحدة من حيث ان الانسان مع اخيه الانسـان يكونان من الوجهة الروحية ، حرية واحدة لااثر فيهـا للتصادم او التعاكس او تعدد الذاتيات ، لكنه من الوجهـة الجسيمه مخالف لذلك تماما على ما سبق (٢) .

تدخل الوسيط « الذاب » :

في الاحوال العادية لايلبث الفرد وقدعانى ذلك الصدع ان يثوب متجها من جديد نحو السلوى والاتزان ، بل لنقل نحو مغالطة نفسه وتأويل حقيقة حالته .

هو يغالط نفسه بعدة اساليب عقلية ووجدانية فلا يلبث ان يتوهم احساسا بان الجرح قد التأم والصدع قد ارتاب ، وما برىء في الواقع جرح ولا استصلح صـدع مادامت الحقيقة الاولى التي تكون انما هي التناقض والتصدع والتمزق ، فلا بد اذن ان كائنا ما يقوم ، لسبب او لاخـر بتخديره .

هذا المخدر او المغالط هو العالم ، والسبب هو ـ على حد تعبير مالوف ـ : « مصلحته الذاتية » .

ذلك بان اقامة ضرب من الشعور بالانسجام ، او بعبارة اصح : باقامة ضرب من الغفلة عن الشعور بالاصطراع والتمزق والتناقض ـ من شأنه ان يضفي حماية علـى اعتدائه علينا ، باخفائه وجه العداوة وتقنيعها .

ذلك بان المرء لو وعى التمزق فانه يعي بالمثل عداوة العالم اياه ، فيهب ـ كنتيجة حتمية ـ لمقاومته (١) . اما عندما يقع فريسة تخديره فانه ـ اي المرء ـ لن يرى اذن ما يدفعه دفعا الى المقاومة ولا يرى ما يبررها .. الامر الذى يستغله العالم كوسيلة تساعده على مهمته الا وهي«عولمة» الانسان(٢) .

والوسيلة الاساسية التى يتذرع بها العالم فـي سبيل غايته ، هو ما اطلقنا عليه لفظة « الوســيط » ، فالوسيط اذن هو قناع العداوة التي بيننا وبين العالم ، انه مموه المهزلة ـ المأساة

ويتبدى هذا الوسيط فى شكلين رئيسيين همـا فكرة الله (٣) والجمال حيث نرد على الاولى بالايمـان وعلى الثاني ان كان جمالا انسانيا حسميا بالحب، وان كان جمال طبيعة ، بالاعجاب .

وعلى الرغم من ان كلا من الله والجمال مشكل من اشكال الوسيط فان بينهما فرعا اساسيا اذ ان المفروض في الاول انه مفارق للعالم وللانسان ، فائقهما ، اي انه ـ على هذا ـ من حقيقة ثالثة لا هي بالجسمية ولا هي بالروحية ، ولا هي كذلك بالجسم ـ روحية ، وانمـا هي حقيقة في امكانها الا تطل بكل الحقائق ، انها التفوق المطلق.

اما الجمال فليس كائنا مستقلا ـ والجميل اكثر من ذي الجمال ـ وانما هو حالة ، حالة ناتجة عن توازن ما بيننا وبين العالم ، فهو ناتج عن وجودنا تجاه كينونـة العالم .

وبينا لا يجد اناس صعوبة في انكار الوجود الالهي قائلين ان حقيقته المفترضة هي نفسهـا تساعد على ذلك اذا نحن فيمـا يعود الى الجمال نجد صعوبة كبرى الا نعجب بـه او نحبه ... لا لكون حقيقتي غير مفـارقة وحسب ـ اذ انها بمثابة النغم بيننا وبين العالم ـ بل ولكونه متأتي الادراك بالجسد ومصادقا في كثير من المناسبـات والظروف .

---

(١) الموت ـ مجلة الفكر التونسية ـ السنة ٤ العدد ٩ ـ جـوان ١٩٥٩ ـ مقال لكاتب هذه السطور .

(٢) الفصل الثاني ، الانسان والانسان .

(١) سيتجلى معنى هذه المقاومة فيما بعد ، اما العدائية فقد سبق انها النشاطية المجهولة الهدف .

(٢) اي تصير الانسان عالما ، وذلك بان يبتدىء العـالم باكسـاب الانسان الاخلاق الضارة بالاخرين لينتهي اخيرا الى امانته .. « اي تحويله اليه كليا بعد ان حول روحه » .

(٣) في مقال لي نشرته مجلة الفكر التونسية « السنة ٢ ـ العدد ٢ـ نوفمبر ١٩٥٤ » تحت عنوان « الوجود الخصب في الثورة الجزائرية » حاولت القيام بشيء من تفصيل ذلك ، فاشرت كيف تبدو دلالة هـذه الواسطة عندما يواجه المرء حالة مقلقة، فيعلق البدائيون القمائم والرقى عند الدخول في الحرب ، ويشير المسيحيون الى الصليب ، ويذكـر المسلمون اسم الله .. في المواقف التي يخشون ان يكونوا فيها ضعفاء..

ومعنى ذلك ان الوسيط في شكل الجمال هو اخطر صور الوساطة اطلاقا واكثرها حدوثا واعمقها اثرا فهو لا يجعلنا نغفل وحسب عن وجود تلك المهزلة ، المأساه ، بل ويجعلنا نشعر وكأنه لم يعد من تقابل ومن خرق مطلقا بين الانسان والانسان وبينهما وبين العالم .

٤ ـ من احتداد المرهق الى الاستبطال

سقوط الوسيط :

يقتضي سقوط الوسيط مقدارا عظيما من التأزم: المأ كبيرا ، مأساة تقض المضجع .. صدمه ميتافيزيقيه ، ومن غير الممكن ان ينبثق فجاة ودون جذور ، كذلك ليس من المعتاد ان تؤدي اليه الصادعات الانفة الذكر بكيفية دائمه ان لم تصاحبها « مضاعفات » اخرى .

هو لا يقع فجاة ولا تؤدي اليه حادثة واحدة مثل الخيانة او الجفاء ... انه ليس شبيها بذلك الحس بالعبث الذي يتحدث عنه كامو A. Camus حيث يمكن ان ينبثق في انعراجة طريق، في رؤيه شخص يتمتم من وراء نافذته الزجاجيه ... انما هو محصلة جميع الصادعات ومحصله تأثيرها رويدا رويدا في سبيل الغاء الضوء ، على ذلك الوسيط ، فيتطور المرء تبعا لذلك متلمسا ومتثبتا حتى يصبح يرى بام راسه عدوه الكامن فيه ، وعندئذ يصبح يرى لم كان مخدوعا ومغرورا به، ولم كان وجوده مغرقا في سبات عميق ، يصبح مندهشا كيف لم يكتشف هذا من قبل وكيف تأخر حتى الان والامر من الوضوح والبداهه بهذا المقدار !

وهكذا يجد نفسه وقد سقط الوسيط ، وجها لوجه امام العالم وحيدا ممزقا اسفا يائسا .. ليصبح من بعد جثه عفنة !

نموذج :

« الى x

كان ردك ساحقا .. ولا شك انك كتبته في ظروف مليئة حقدا . غير ان سحقه وان دمرني فانه لم يهزمني انه لم يكن ليثير مني انا ادنى حقد ، اني على العكس اشكره .. لقد كنت سببا في تخليصي من ماض اعترف علنا اني كنت منه على خطأ، على خطأ ، معك ومع نفسي ومع الوجود والعكس اجمعين .

ولكن علي ان اضيف : ان شكري اياك بريء من كل عاطفة وحرارة ، لقد وجدتني في حالة اتخيلها شبيهه بحالة (جاجارين) وقد خرج من مجال الجذب .. ، وصلت الى هذه الحالة بعد ان قرأت اكثر من عشر مرات رسالتك التي رددت بها على رسالتي ، لقد تساءلت عما اذا لم يكن هذا الاعتراف مدفوعا بالجبن او الطمع المقنع او الرغبة في الوصال وقد ابدلت في سبيلها الخطة ...

هيهات ! لقد دفعت ثمن حريتي وحدة ، فاحللت فقدانا عاما لحاسة اية عاطفة حتى ولا كرهك . صحيح اني لن انسى بسرعة ذكرى قاعدة الانطلاق ، غير ان ذلك لن يعدو الذكرى وقد عزمت على تغيير مجراها.

في الختام ارشدك مجانيا الا تغتري باخبار الدعاية ذلك بان رائد الفضاء لم يعد ولن يعود قط الى الارض.. وان الاغنية التي حملها معه « احبك ايتها الحياة » لم يعد انشادها وقفا على اهل الارض . وداعا الى الابد !»(1)

« ... »

واحسب انه ليس ما يضطرنا الى اعتبار هذه الرسالة مختلقا ، ولا ما فيها مفتعلا ، والاقرب ان ترينا تعبيرا مناسبا عن شخص يكتشف فجاة وبطريقة جازمة وباته انه غير محبوب اصلا من معبودته .

بلى لقد كان من الجائز ان نتصور له موقفا اخر ، نزوعا الى الله يراب به صدع قلبه،تفانيا في خدمة الصالح العام.. او تعاطي بعض الحركات الرياضية !

غير ان المصائب لا تأتي كما يقال فرادي والوعي بالمرهق لا يكون جديرا بالحصول الا بتكامل الخيبات، خيبه الحب وغير الحب .

ومن يصل هذا الموصل فقدان الحبيب وفقدان المعبود فالغالب انه لن يتحرق شوقا الى القيام بـ « ثني الجذع اماما وخلفا ... »

مواجهة الانتحار :

« هكذا اذن هكذا !! »

ولكن ماذا يفيد صاحبنا البكاء اذا لم يكن هناك من يعطف ، اذا لم يكن هناك من قوة تعيد اليه الاهه ومحبوبه! والانفعال لماذا ؟ اننا ننفعل عندما يوجد كائن يثيرنا هو في الاصل ذو قرابة اما بالنسبة الينا ، فانفعالنا بمثابة عتاب له ، غير ان الامر هنا بات على خلاف ذلك ، فليس هناك من كائن غير العالم ، والعالم عدونا اللدود ، فممن الخلق ان ننفعل اذن .

والواقع ان هذه الحالة من الدوار لتلون في بداية العهد بها ، الوجود بلون خاص ، بل انها لتنتزع منه كل لون وتفقد ، كل مذاق ، فهذا المصاب بالدوار لا بد ان يتساءل اولا عما هي الغاية من وجوده هذا ، وما هو المعنى الذي عسى ان يكون به ؟ كيف استطيع الاستمرار في الحياة وقد انفرطت من عقد الاخرين ؟ وكيف اتجاوب معهم عاطفيا وليس احدنا تجاه الاخر بدون حدود تقف بيننا سدا منيعا ؟ بل لماذا استمر اصلا في الحياة ما دمت امضي العمر وحيدا ليختتم بالموت ، عمر اقضيه محروما معذبا لاكافأ في النهاية بالتحول الى جثة !

اني مستعد ان اعمل كل شيء وان اضحي بكل شيء واتحمل كل شيء.. ولكن بشرط واحد فقط، هو ان يكون لعملي غاية غير الفناء ، فاما ان اعمل بدون غاية فتلك هي الالية التي لا استطيع ايهام نفسي بسوائها .

ـ التتمة على الصفحة ٧٨ ـ

مكتبة روكسي

اطلبوا منها الاداب كل اول شهر

مع منشورات دار الاداب

اول طريق الشام

صاحبها : حسن شعيب

(1) من مذكرات شخصية لم تنشر بعد .

الوجود بلا وسيط

ـ تتمة المنشور على الصفحة ٢٩ ـ

واذن افليس الموقف المنسجم المعقول المريح والراحة قيمة لا تدفع لكونها بديهة فسيولوجيه هو ان ارذل هذه الكاس ان انتحر ؟

التأجيل :

غير انه اذا كانت الخاطره الاولى توحي لنا بان الانتحار هو النتيجة الوحيدة المقبوله فان نظره اقل تسرعا ترينا ان العكس هو الصحيح ، اي ان البديهية الاولى الناتجه من مواجهه الانتحار انما هي التمسك بالحياة .

ذلك باننا لو فرضنا ان الانتحار مناسب من الوجهة السابقة فانا سنجده غير مناسب من وجهة اخرى . هذه الوجهة هي جواز تبدل الموقف (١). وان يتبدل فاني اظل « امتلك » وسيلة الانتحار ولم اخسر شيئا ، فهو ـ اي الانتحار ـ لا يفوت وهو دائما تحت الطلب .

واخيرا فمن الجائز الا يكون دواري هذا غير كابوس ! اوليس انه لا حدود تميز نومنا من اليقظه ؟ او لسنا نؤكد لانفسنا احيانا ونحن نحلم ـ كما تبينا من بعد ـ اننا في تمام اليقظة ؟

صحيح اني اشعر وانا افكر في هذا ، ان في الامر « حيلة ما » (قد تكون من فعل المرهق) ولكنها ليست اكثر مما اشعر به وانا في حالة النوم . حقا انه لا وقائع تجعلنا نقتنع بان هذه اكثر من فروض ، هذا صحيح ، ولكن يكفي ان يكون لها هذا الاحتمال الانف حتى تكون كافية لاقناعنا بالعدول عن الانتحار ، او على الاقل بتأجيله.

ليس هذا فقط ، بل ان ارصاد كل قيمة ومصدرها انما هو الحياة (٢)، وليس من الممكن ان تكون هناك قيمة بدون حياة ، واذن فان قيمة كل القيم والمبدأ الاعلى والمرتكز القاعدي لكل قيمة انما هو الحياة، واذن فان العزم على الانتحار استنادا الى التعلات السابقة ليس في الوقع غير الخطأ ، ان مجرد خطورة فكرة الانتحار على البال دليل على خطأ تنفيذه وعلى عبثيته ، والواقع ان المرء لا ينتحر ولكنه يقوم بحركة تؤدي الى موته ..

الاستبطال :

لا مطمع اذن في زوال ذلك المرهق (زواله اصلا) ما دام ينسج وجودنا مع انفسنا ومع الاخرين ، ومع الطرف المساهم في انتاجه (العالم) صحيح ان هذا المرهق كثيرا ما يتنكر ويتقنع كما سبق ان رأينا ، غير ان ذلك لا يفقده تأثيره ، انه يلون هذا التأثير ويكتفي بالتلوين غالبا.

اما اذا كانت التجربة من القوة بحيث تطيح بقناعه فان ترجي ارتفاعة ، المرهق ـ يصبح بدون معنى وغير ذي موضوع .. كذلك لن يكون التغافل ، عنه مبررا ولا جديا، ذلك بان الشعور به قد اصبح يساوي الشعور بالوجود

ولكن هل علي ان اظل اتلمظ هذا الطعم صارخا: يالله المؤلمة ! يا لغرابته المألوفة !! هل ليس امامي غير ان اظل اجتر ذكريات الصد واستعيد اهات الاسف وابكي انهيار برجي الالهي ؟

ان العالم يخبيء لي فعلا لا ينسجم مع هذا التلمظ ، انه لا ينساني ابدا ، وان تصميمه لقاطع ، وخطته لواضحه قد يزيد المرتز فيها ويغير « التكتيك » .. الا انه لن تكون لمناومته هذه غير غايه واحدة هي الحصول على غرضه مني باحسن ما يناسبه من الوسائل وبالذها عنده ..

واذن فالموقف الوحيد المتماشي مع حالتي ، الموقف الاصيل ، الموقف البديهي الذي هو في غنى عن كل تبرير وتزكيه ، هو ان اشد باحدى يدي على جرحي النازف وان امسك بالاخرى على السلاح ، على ان انطلق فدما الى العالم والدوار ياخذني والنزيف يضخني ، .. يتصبب قلبي دما وساعدي عرقا ، لم يبق لي من دواء وليس لي معيد عن الانطلاق ...

هذا الموقف ليس قرارا يبتني على «حيثيات» جزئيه تحيل التحقق ، وقد عجزنا عن الوصول اليه ، الى مجرد التحري والاجتهاد فيه ، ليس هو قرار ولكنه تلبيه ، تلبيه لاصل نداء في واشد ، معي صميمته .. لان موجة هذا النداء انما هو انا ، انا الذي اخترت الوجود وفي امكاني ، في كل وقت ، ان انبذه ، فكلما كان اصراري هذا اقوى وكلما كان فاقدا لاي سند او دليل او قيمة خارجية من دون قيمة وجود في كلما كان وجودي اعمق واخصب واعظم ، الحياه في عهد مواجهة الانتحار فجرت في وجودي ومن هذا الوجود استمددت القيمة التي اسست عليها تأجيل الانتحار ، وها ان هذه القيمة ترد الان الي تحيه خيرا فتزيد وجودي توحدا وجدارة وصميمية واصالة

وهذا التراقد الدائم المستمر بين الوجود والوجود ، بين القيمة والاختيار لهولب الوجود الانساني وسويداؤه

التحالف :

لكيلا تذهب بطولتنا سدى ، ولكيلا يكون عملنا ضد العالم ضعيف المفعول (وتنبع هذه الفكرة مباشرة من القيمة الاصلية العامة) علينا اذن ان نهيىء الوسائل المقيده والمساعدة على ذلك .. تماما مثلما يستعد المحارب وهو داخل الى الحرب ، ومثلما يفعل كل عاقل يقرر مواجهة عدوه والنيل الفعلي منه.

والواقع ان الموقف ليشبه الاستعداد للحرب من اكثر من وجه ، اذ انه لا بد من ان تضم تلك الوسائل هذا كما هو انسان بالحرب ، رجالا وعتادا وخبرة باسلوب العدو في قتاله ومعداته وخططه وكل ما يترتب على الجهل به الانسحاق العاجل المحتوم ...

من حيث الاشخاص : علي ان اشغل مكان الحب الجنسي والصداقة (الحب بالنسبة الى النساء والصداقه بالنسبة الى الذكور ، وقد يحصل خلال ذلك) بمباديء والتزامات . ذلك ان الحب لم يعد ممكنا بعد ان تفجرت في اعماقي ينابيع الوحدة ، وكذا الصداقة .

اما الالتزام فينتج عن شبه حلف اعقده ضمنيا مع اخي الانسان . فالانسان هو الحليف الطبيعي لاخيه الانسان ، لان الكل عرضة للعالم وضحية له ، ولا يغير من الامر انهم لا يدركون ذلك جميعا ، ولا شك ان مثل هذا

---

(١) كان يتوب الحبيب من جفائه ، او اتخلص انا من حبه . فليس من شرط لامكانية حصول هذا التغير سوى المستقبل ، اي دوام حياتنا فترة اخرى بقدر ما تكفي لامكانية التغير، وفعلا فقد عرف التاريخ البشري كثيرا من تراجع مثل هذه المواقف التي كانت في وقت من الاوقات مؤبسة .

(٢) منبع القيم المباشر انما هو التوجد ، والحياة تشمل التوجد والوجود واستعمالنا للفظ الحياة فيه مراعاة امكانية تحول الوجود الى توجد ...

التحالف يقتضي اخلاقا معينة هي فعل الخير بصـــددهم والتساند بعضهم ببعض ... في سبيل الوقوف واجهه واحده تجاه العدو المشترك .

غير ان عدة الرجال وحدها لا تكفي في مواجهة العالم، حتى ولو كان جميع الناس قد هبوا في جبهه واحـده .. انما سيظلون في حاجة الى المعرفة ، معرفة «التكتيك» الذي يتبعه العالم والتقاليد التي يسير عليها في نشاطـه .. اذ اننا بمعرفة ذلك نصبح على مواجهته اكفـا واكثـر اهليـة .

والتعبير عن «التعبئة العامة» هو الحكومة العالمية (١) كما ان التعبير عن تلك المعرفة هو القوانين العلمية.

واما الفن بمختلف انواعه فمهمته الدعاية الى هـــذه الامور ، اعني توعية الناس وجعلهم يستبطلون عليه .

بقي هناك اقنيم اخر هو التطبيق (التقنية) فهذا هو الاداة التي تجعل التحالف والعلم قابلين للاتيان بالنتيجـه المرجوة ، وذلك بسبب من ان الالة — اداة التطبيق — من حيث هي مادة ، ذات طبيعة من طبيعة العالم ، في نفس الوقت الذي هي فيه على طبيعة من طبيعة الانسان لوظيفتها ولكونها مصنوعة — على خلاف العالم — صنعا .

اما المعيار العام لكل ذلك فهو مدى تسخير العـالم واخضاعه لسيادة الانسان في سبيل صالح الناس اجمعين هذا الصالح الذي يبتديء من الوقاية من المرض والجـوع والظلم لينتهي بالخلود ، اي بان يصبح الانسان غير قابـل للموت .

هل لنا ان نتكهـن بان الانسان سوف ينتصر فعلا ضد العالم ؟

مهما يكن فان انتصاره مشروط بنضاله ... ولئـن يدمر فذلك خير من ان يهزم .

خـاتمة :

نحـو الوحـدة

لو اننا ابدلنا بالنظرة السابقة التي هي وجود — بشرية ، بنظرة كونية مجردة Ontologique وتأملنا في طبيعة نشاط الكون بما فيه الانسان وفكرنا في غايته — لامكن ان نذهب الى ان الوحدة الكبرى لهي المنزع العام ، للكون ، وذلك اما بتحويل الانسان نهائيا ، — بقطع دابره — الى العالم ، واما بتحويل العالم كله الى معلومية بعد ان كانت صفته السائدة هي المجهولية .

وهذه النظرة لا تستبعد ان لم تستقرب وجـود « القوة الكبرى » او « التطور العظيم » ، غير انه — تبعا لهذه النظرة — لا احد من القوة او التطور بالناجز التـام او المتكرر . ويقف التطور وتكتمل « القوة الكبرى » عندما تسود الوحدة النهائية ، وكل وحدة سياسية او غيـرها هي خطوة ما في سبيل ذلك .

على ان هذه الاراء المبنية على النظرة الانطولوجيـة تستوي عندي شخصيا في « صوابها » و « خطئها » ما دامت تتصل بالوجود العام ، واما ما يهمني كاي فـرد اهمية مباشرة فانما هو هذا الوجود الخاص هذا الوجـود الذي يعاش بين تخثر الدم ورائحة البارود ... وذكـرى خفقة ، ومقياس التعبير عـن مثل هذا الوجود ليـس الصواب او الخطأ ولكنه الاصالة ..

الجنيدي خليفه

---

(١) غني عن البيان ان ليس ما يحتم ان تكون هذه الحكومة شيوعيةمثلا

ملاحظـات

(١) لم تتقيد في هذه الكلمة باصطلاحات خارجية

(٢) سيرى القاريء ان الوجهة التي نظرنا منها الى العالم اضطرتنـا الى ان نتكلم عنه وكانه كائن ذو حياة بالمعنى العادي للحياة ، في حـين ان ليس من همنا الادلاء برأي في مثل هذه النقطة ، واذن فليكن ذلـك وسيلة تعبيرية لا غير .

(٣) هذه النظرة مستقلة نابعة من تجارب واقعية ، غير انه ليـس معنى استقلالها انها لم تتأثر بافكار غيرية بالعكس انها متأثرة الى الحد الذي يصعب معه ارجاع كل تأثير الى مصدره ، ولهذا الى جانب انني لا احتفظ بالمراجع او بعد عهد قراءتي اياها — لم اثبت استشهادات خارجية . غير اني مع ذلك قد كتبت هذه الكلمة وانا شاعر اني متأثر بكتب معينة اهمها :

(١) ما فوق مبدأ اللذة — سيموند فرويد
(٢) مشكلة الفلسفة — الدكتور زكريا ابراهيم
(٣) الفلسفة الوجودية — الدكتور زكريا ابراهيم
(٤) دراسات في الفلسفة الوجودية — الدكتور عبد الرحمن بدوي
(٥) الانسان ذلك المجهول — الكسيس كاريل
(٦) سر الجسم البشري : مقال بمجلة الاداب البيروتية لرينه حبشي لم اعد قراءته من سنوات بحيث نسيت في اي عدد نشر
(٧) هكذا تكلم زرادشت — نيتشه
(٨) كتابات (جماعة علم النفس التكاملي) في طبيعـة العلاقة بـين الجسم والنفس — وهو مثبوتة في كتبهم ومجلتهم .
(٩) بعض مؤلفات (ارنست همنغواي) مثل وداعا للسلاح — الشيخ والبحر — لمن يدق الجرس

عدد ((الاداب)) المتاز

تقدم ((الاداب)) في مطلع العام القادم ، ١٩٦٢ ، على مالوف عادتها كل سنة ، عددا ممتازا في موضوع :

الاتجاهات الفلسفية في الأدب المعاصر

وسيكون حافـلا بالدراسات العميقة التي تتنـاول بحث مختلف النزعات الفلسفيـة كمـا تظهـر في الاثـار المعاصرة للاداب العالمية .